افتنـي بـالله بـالكـعبـة بـالحجـر الاسـود بـالـركـن الاغـر !
ان علـت في عـزّهـا شـامخـة فـوق رأس الطـور تلـهـو بـالـعبـر
وغـدت جـامـعـة عبـريـة ونـهـى الحـاخـام فيـهـا وأمر
ايقـول الشيـخ والقس اتئـد ان للمطـران والمفتـي حجـر [١٦]

ومن الغريب حقا ان يبدر مثل هذا التصرف من مفتي البلاد ، خصوصاً وان اخطار الصهيونية كانت قد ظهرت بوادرها منذ بدأت قوافل الرواد الصهاينة في العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، تغزو البلاد بأموالها وتقيم فيها المستعمرات والمستوطنات للمهاجرين اليهود[١٧] ، ثم اصبحت نواياهم اكثر افتضاحا ، وخاصة لرجل في مقام المفتي ، بعد تصريح بلفور وبعثة وايزمن . والأنكى من ذلك انه ، في هذه الفترة ، بدأت تتجسم اطماع الصهيونية في مكان المسجد الاقصى ، وروجوا لذلك بما راحوا ينشرونه من صور للمسجد يعلوه العلم الصهيوني والكتابات العبرية ومن صور لهيكل سليمان مكانه ، وكذلك بما يعرضون من اسعار مغرية لشراء الاراضي ، مما اثار هواجس الاهالي ومخاوفهم ، فنقرأ احتجاجاً مقدماً من عرب حيفا ضد سياسة الوطن القومي اليهودي مؤرخاً في كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ ، فيه اشارة الى ما نشرته جرائد الاتراك ، قبيل الاحتلال ، عن مستقبل فلسطين ووعد بريطانيا لليهود بتأسيس مملكة يهودية فيها ، غير أننا نتبين فيه ، كذلك ، حسن النية البلهاء ، اذ يقول : « ان الدول المتحالفة لم تخض غمار هذه الحرب الا لتحرير الشعوب والمحافظة على حقوق الضعيف ، ونحن نعترف ان لها اليد البيضاء بمساعدة العرب على انقاذهم من مظالم الاتراك ومنحهم الحرية والاستقلال ..... ولاعتقادنا ان الحلفاء الذين حررونا من رق الاتراك ، لا يمنحونا الحرية والاستقلال بيمينهم ويناولون بشمالهم السم الزعاف الذي يقضي على كياننا ويقتل قوميتنا وينزع منا بلادنا الموروثة بدماء الاجداد » [١٨].

وقد ظل هذا التفكير القصير النظر يسم فكر هذه الطبقة من الوجهاء ويوجه سياستها طوال فترة العشرينات تقريبا ؛ وقد برز ذلك في مقررات جميع المؤتمرات الوطنية التي عقدتها من ١٩١٩ حتى ١٩٢٨ التي ، وان ظلت تلح فيها على فكرة الاستقلال والوحدة العربية والحياة النيابية واستنكار تصريح بلفور ورفض الانتداب وفكرة الوطن القومي اليهودي ، فانها ظلت كذلك تقيم علاقاتها بسلطات الانتداب على اساس الاعتقاد بمبادىء بريطانيا السامية التي ترغب في تطبيقها في العراق وشرق الاردن ، وعلى اساس تأييد المودة المتأصلة بين بريطانيا والأمة العربية اللتين تربطهما مصالح عظيمة . وبذلك تحولت قضية الاستعمار البريطاني ، في نظر الحركة الوطنية ، الى قضية شرف « بدلا من ان تكون قضية مفهوم اقتصادي ـ سياسي تشكل الصهيونية احدى « ظواهره » فالصهيونية هي توطين فئات أوروبية في الارض العربية ضماناً لمصالح الاستعمار في المنطقة وخوفا من نمو الوعي القومي الاجتماعي لدى الجماهير العربية الذي قد يطيح مستقبلا بمركزها[١٩] . ولربما كانت البرجوازية تتحاشى الموقف القائم على هذا المفهوم الثوري لاحساسها بانه يضر بمصالحها المرتبطة بمصالح الاستعمار ، والقائمة على تبادل المنفعة معها ، في اطار نظام اقتصاد الخدمات الذي خلقه الاستعمار في البلاد ، باحالتها الى سوق استهلاكية لمنتوجاته ومصنوعاته . ولم يكن اقدر من الفلاح الفلسطيني على ادراك هذا المفهوم بابسط اشكاله ، فقد ادرك في اعقاب الحرب انه الضحية الاولى للاستيطان الاستعماري